# الاستشارة الفلسفية عندما تكون بوبرية(*)

أ. د. يمنى طريف الخولي(١)

بادئ ذي بدء، بمعني الكلمة، أي منذ بدء إسهامي الفلسفي من أربعين عاما خلت، اضطلعت بتقديم كارل بوبر Karl R. Popper (١٩٠٢-١٩٩٤) فيلسوف المنهج العلمي الأول للمكتبة العربية. قدمت أول دراسة أكاديمية عربية تحيط بفلسفته للعلم. منذ ذلك الزمان البعيد وحتى هذه اللحظة، أشعردائما بإلزام والتزام بتقديم الطرح البوبري في المسألة المعنية.

والمسألة التي تعنينا الآن هي الاستشارة الفلسفية، سواء الاستشارة الفردية التى تلامس العلاج النفسي أو الاستشارة الجماعية التي تلامس الإصلاح السياسي والاجتماعي. فما شأنها عندما تكون بوبرية؟ ما وضعها في رحاب هذه الفلسفة النقدية العقلانية، أو بتعبير مباشر: ماذا عن الاستشارة الفلسفية حينما تأتينا من أعطاف فلسفة كارل بوبر. وهذا عنوان أول كتاب لي " فلسفة كارل بوبر: منهج العلم.. منطق العلم – ١٩٨٩".

لا شك أن منهجية العلم ومنطقه يجعلان هذه الاستشارة الفلسفية من نوعية مُتميزة وذات خصائص مُمَيَّزة، تمُيزًا بما هو منطقيٌ منهجيٌ مقنن. وبمثل هذا التميز، نجد الطريق ممهدًا وواعدًا أمام الاستشارة الفلسفية عندما تكون بوبرية.

ذلك إن الفلسفة البوبريّة تُعرف في الخطاب الفلسفي بعنوانٍ أو مصطلحٍ آخر مرادف، ألا هو التكذيبية Falsificationism ، من حيث أن آية فلسفة بوبر ورسالتها إنما يتمثل في كشفه العبقري لكون التجريبية ليست البتة استقراء للواقع واغترافًا من المعطيات الحسية، بل إن التجريبية في كلمة واحدة هي الاختبارية، هي الاختبار

(*) ألقيت هذه الورقة في: المؤتمر الدولي: الاستشارة الفلسفية والعلاج بالفلسفة، الجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة، ١١-١٣ مارس2023.

(١) أستاذ فلسفة العلوم ومناهج البحث بجامعة القاهرة.

المنهجي المسؤول أمام الواقع والوقائع. كل تجربة معملية هي اختبارٌ لفرضٍ علمى، اختبار حقيقي وليس صوريا، أي يمكن ألا يجتازه الفرض حين تشهد الوقائع بكذبه. إمكانية التكذيب هذه، أي القابلية للتكذيب هي الخاصة المنطقية المميزة للنظرية العلمية، هي التجريبية ذاتها.

يمكن أن نلاحظ عبقرية اللغة العربية التي أسمت المعمل "المختبر". ما يجري فيه اختبارات قاسية، محاولات تكذيب دؤوبة، لتكشف الوقائع عن موضع الخطأ في الفرض المختبر حين يتناقض معها، فيكون تصويبه، أوتعديله أو حذفه، والإتيان ببديل يتلافى ذلك الخطأ؛ وبالتالي تأتي محصلة الاختبار التجريبي أي محصلة محاولة التكذيب، متمثلةً في فرضية أخرى أقرب إلى الصدق/ الحقيقة.. أي أكثر تقدمًا، قابلة بدورها للاختبار ومحاولة التكذيب والتصويب والتقدم التالي أصوب، وهلم جرًا.

هكذا نجد القابلية للتكذيب هي مناط التصويب والتقدم المتواصل الذي يتميز به العلم التجريبي، هي تقدمية العلم ذاتها، هي روح التفكير العلمي الذي هو ذاته التفكير الإبداعي النقدي. القابلية للتكذيب هي الخاصة المنطقية المُميزة للعلم، هي فحوى منهج العلم وصلب منطقه.

تلك هي خلاصة فلسفة كارل بوبر التكذيبية.

* * *

التكذيبية تزيح الخطأ، وقد تبدد وهمًا. والخطاب البوبري بجملته خطاب نقديٌّ تكذيبي. ولنذكر كتابه الأكبر "الحدوس الافتراضية والتفنيدات Conjectures and Refutations" أي فروض وتكذيبات، حيث البحث الدائم عن مواضع الخطأ لتصويبها. وبهذا نجد الخطاب البوبريّ من بابه بمثابة مشورة فلسفية علاجية. وهل العلاج العقلاني الانفعالي والعلاج المعرفي السلوكي إلا تصويب أفكارٍ خاطئة؟

هكذا كانت الفلسفة البوبرية الإبستمولوجية ، بشيء من التبسيط، تدخل في صميم الاستشارة الفلسفية، الفردية العلاجية. فكل فكرة منطقية شافية هي فكرة علاجية من شأنها أن تصوّب الفكر الخاطئ وتقوّم التصور الزائغ. وينصبُّ هذا بأسرِه في مصلحةِ الاستواءِ النفسي والانفعالي والسلوكي. إذن تؤكد الفلسفة التكذيبية/ البوبرية من جانبها أن الفيلسوفَ جديرٌ بتولي أمر العلاج النفسي، ولعله أكثر استعدادا وأعمق تأهلا، وربما كان في بعض المواقف والحالات أقدر على هذه المهمة من السيكولوجي.

* * *

هذا من منظور فلسفة العلم البوبرية، التي تعد من أجمل حصائل فلسفة القرن العشرين. ولئن كان كارل بوبر – كما أشرت– هو فيلسوف المنهج العلمي الأول، فإنه ليس هكذا فحسب، بل هو أيضًا فيلسوف الليبرالية الديمقراطية البارز. والحق أن كارل بوبر قد اكتسب شهرته وشيوعه وذيوع فكره في الأوساط الثقافية، ومنحته ملكة إنجلترا الراحلة لقب "سير"، أساسًا بفضل ومن أجل أوسع كتبه انتشارًا وأكثرها شهرةً وترجمة إلى لغات عديدة: *المجتمع المفتوح وخصومه* بجزأيه – ١٩٤٥، الذي هو تصدٍ عميق جذري للتيار الذي كان مقابلا لليبرالية آنذاك أي الماركسية، ولكل المذاهب السياسية التي تغلق جدران المجتمع داخل إطار شمولي وأيديولوجيا تاريخانية محددة تزعم رسم مسار محتوم للتاريخ، في نسق موحد يرفض الرأي الآخر، بل لا يسمح به ولا يتسامح إزاءه. يُقيْم بوبر الحجة تلو الحجة على أن صب المجتمع داخل إطار شمولي كلي ونسق موحد، سواء أكان النسق هو الماركسية أو الإسلام السياسي أو سواهما، أمر مجافٍ لمنطق العلم ومنطق الواقع ومنطق التاريخ، وإن استحقت الماركسية بالذات نقداً مكثفاً آنذاك.

ولا شك أن ما يثبته ويعضده ويوطده "*المجتمع المفتوح*" من آليات الرأي والرأي الآخر، وقيم التسامح وقبول الآخر، والتحرر من الإطار المغلق، ومن الديكتاتورية والانفراد بالرأي وإقصاء الآخر ومن التعصب والتطرف..... الخ، إنما يجسدُّ روحَ الاستشارة الفلسفية، والوسطَ الملائم لها ولفاعلياتها.

والواقع أن فلسفة بوبر السياسية برمتها على هذا النحو، وبخاصة فكرة الهندسة الاجتماعية الجزئية piecemeal social engineering، التي هي أسلوب تناول ومعالجة المشكلات الاجتماعية، كل مشكلة على حدة، بالأسلوب الذي يلائمها، فيكون الانتقال من المشكلات إلى حلولها في إطار ديمقراطي متفتح. ويا لها من مشورة فلسفية سديدة!

* * *

وأخيرا، يتقدم الفيلسوف المترهبن في رحاب الفلسفة، والمعالج النفسي الطبيب النطاسي الدكتور عادل مصطفى المدير في مستشفى الطب النفسي بالكويت، وأيضًا

زميل العمر الفلسفي. كنت أول دفعتي وهو أول الدفعة بعد التالية لها، ومن حينها لم ينقطع التواصل والتشاور الفلسفي بيننا أبدا، ولا انقطع سلسال أعمال فلسفية ثقيلة العيار، بمعدل صدور كتاب أو أكثر كل عام تقريبًا، للدكتور عادل مصطفى، تأليفًا أو ترجمة.

وفي العام قبل الماضي ٢٠٢١ أصدر ترجمة أستاذية مكينة، بلغة عربية رصينة بليغة، لكتاب ضخم القيمة والحجم هو "الاستشارة الفلسفية: النظرية والتطبيق" لبيتر رابه، مزودا بمقدمات وشروح مسهبة وتعليقات نافذة. ثم أخرج هذا العام ٢٠٢٣ ترجمة لكتاب لو مارينوف " في العلاج الفلسفي: تطبيق الفلسفة على مشكلات الحياة اليومية"، بمشاركة الدكتور محمد السيد أستاذ فلسفة العلم بجامعتي المنيا والكويت. وقد ساهم في هذا المؤتمر "الاستشارة الفلسفية والعلاج بالفلسفة ١١-١٣ مارس ٢٠٢٣" ببحث عنوانه "الاغتباط بالشيخوخة والتصالح مع الموت: ألوانٌ من المنطق" الذي يمثل تطبيقًا ناضرًا للاستشارة الفلسفية، وقدرتها العلاجية على إبراء مخاوف وهموم.

في ضوء هذا البحث نلاحظ أن الاستشارة الفلسفية لن تنبع فقط من الجانبين الأساسيين للفلسفة البوبرية، أي فلسفة العلم وفلسفة السياسة، بل سوف تنبع كذلك من سيرة الفيلسوف كارل بوبر ومسيرته. فقد عمّر بوبر وجاوز التسعين من العمر؛ فامتدت حياته بطول القرن العشرين بأسره إلا قليلا. كانت شيخوخته هادئة وادعة منجزة شهدت تحققات وإنجازات، منها أن أن حقق أخيرًا حلم حياته وقام بتأليف قطعة موسيقية وهو في التسعين من عمره. ومن الزاوية الفلسفية قبلا وبعدا، كانت شيخوخة بوبر فاعلة منتجة حتى أن آخر كتاب له " أسطورة الإطار: في دفاع عن العلم و العقلانية" قد خرج من المطابع العام ١٩٩٤، بعد رحيله بأيام. وخرجت ترجمتى له عن سلسلة عالم المعرفة الكويتية، الكتاب العربي الأول، العام ٢٠٠٢، ثم طبعات أخرى. الخلاصة أن سيرة كارل بوبر تعلمنا "الاغتباط بالشيخوخة" الذى اضطلعت به الاستشارة الفلسفية وأسدت فيه.

وتبدو الاستشارة الفلسفية بأسرها مجالا تطبيقيًّا فاعلًا وفعالًا، متصاعدًا وواعدًا بالمزيد من النماء والعطاء.

## مصادر

1- Karl, R. Popper, Conjectures and Refutations: The Growth of Scientific Knowledge, Routledge and Kegan Paul, 4th edition, London,1976.

٢- كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي: دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية، ترجمة د. عبد الحميد صبرة، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٥٩.

٣- كارل بوبر، أسطورة الإطار: في دفاع عن العلم والعقلانية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٩٢، ٢٠٠٣. ط٢ عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٥.

٤- يمنى طريف الخولي، فلسفة كارل بوبر: منهج العلم .. منطق العلم (١٩٨٩)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،. ط٢ ٢٠٠٢. وطبعة إلكترونية على موقع مؤسسة هنداوي، إنجلترا

https://www.hindawi.org/contributors/94709302

٥- بيتر ب. رابه، الاستشارة الفلسفية: النظرية والتطبيق، ترجمة عادل مصطفى، دار رؤية، القاهرة، ٢٠٢١.

٦- لو مارينوف، في العلاج الفلسفي إفلاطون لا البروزاك: تطبيق الفلسفة على مشكلات الحياة اليومية، ترجمة عادل مصطفى و محمد السيد، دار رؤية، القاهرة، ٢٠٢٣.